التجسد،

العقيدة والإستعلان الكامل والأخير

طبعة مزيدة لمقالة "التجسد، العقيدة والمضمون"

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٥

www.coptology.org

جذور التجسُّد

يقول الرسول بولس: "الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين" (عب ١: ١ – ٢). قديماً تحدث الله عن نفسه ومع الإنسان وكشف للإنسان خباياه وأعلنه بما يحقق له منفعة حياته ويقوده إلى الحياة الإنسانية الحقيقية. فالوحي وظهورات الله في العهد القديم، ليست إعلانات عن الله وحده، وإنما هي إعلانات عن الإنسان أيضاً، لأن الإنسان الذي يرى ويسمع كلمة الله، إنما يتغيَّر إلى العلاقة الجديدة التي يطلبها الله. الإعلان والظهورات تنقل الإنسان من العصيان والخطية إلى الطاعة والقداسة وإلى معرفة الله.

لقد دخل الله دنيا الإنسان بقدرته الفائقة على تغيير الحياة، هذا الدخول يتم في إطار سيادة الله على الخليقة كصانعٍ لها، فالله لا يتدخل في حياة الكائنات كمتطفلٍ، بل كصاحبٍ ومالكٍ وواهبِ عطية الوجود؛ لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد (أع ١٧: ٢٨). وعندما دخل الله الحياة الإنسانية، احتفظ بأُلوهيته كخالق، وعندما تجسَّد في العهد الجديد، وُصِفَ الخلاص بالخلق الجديد في يسوع المسيح، فالله يتحدث عن نفسه كخالق أو جابل أو بارئ، وهي الأسماء التي أُطلِقت على الله في العربية والعبرية. فالله خالق وجابل؛ لأنه أتى بكل شيء من العدم، وبارئ؛ لأنه كوَّنَ وصَنَعَ، وهذه صورة واضحة يراها الإنسان في أعماق حياته عندما يشعر بحضور الله، وبقدرته المبدِعَة التي لا يمكن أن يدركها الإنسان.

الله الخالق والمخلِّص

لقد وصَفَ الله نفسه عدة مرات بأنه خالق الإنسان وصانع السموات والأرض، لكن قلما ننتبه إلى أن هذه الأحاديث الإلهية تأتي في مجالٍ واحدٍ، وهو عمل الخلاص وتدخُّل الله في التاريخ من أجل الضعفاء والخطاة. تلك هي الصورة الواضحة في الأنبياء، وبشكلٍ خاصٍّ عند أشعياء، حيث يصل القلق بالإنسان إلى ذروته، فالإنسان معرَّضٌ للفناء بواسطة إنسانٍ مثله، والصراع الحاد العنيف يجعل وجود الإنسان في خطر؛ لأن الصراع هو صراعُ شعوب وممالك ... عند ذلك يتحدث الله ... يقف كديانٍ عادلٍ يُدين كلَّ الأطراف، ونادراً في العهد القديم، ما ترى الله يتدخل لمصلحة شعب ضد باقي الشعوب. هذه نظرة جزئية غير كاملة، وإلَّا كيف نفهم نبوة لأرميا حيث يصف الموت والدمار والهلاك؟ فقد دُعيَ أرميا نبياً لكل الشعوب (١: ٤)، بل "ومد الرب يده ولمس فمي وقال لي الرب ها قد جعلت كلامي في فمك. انظر قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك" (١: ٩)، وتأتي النبوة ضد العاصية إسرائيل (٣: ٦)، ثم يتنبأ بحصار وسقوط أورشليم (إصحاح ٤ كله).

الله الدَّيان العادل يحكم، وكما يقول المزمور: "نبلك المسنونة في قلب أعداء الملك، شعوبٌ تحتك يسقطون. كرسيك يا الله إلى دهر الدهور، قضيب الاستقامة قضيب ملكك" (مز ٤٥: ٥-٦)، والحديث هنا ليس عن شعبٍ معيَّنٍ، وإنما عن الإنسانية المتصارعة التي قد يغلب فيها شعب، ولكن الله لا يسمح في النهاية بأن يكون إنسانٌ ما، أو شعبٌ ما عبداً لشعب آخر ... هذا هو العهد القديم كله.

لكن لماذا يتدخل الله كدَّيان؟ أليس لأنه الخالق ... وهذا ما يجعل لدى الله التزامٌ من نحو الخليقة، فهو لا يكتفي بما أعطى من شريعة، وإنما هو يمسك بمسار الحياة كله.. والكتاب المقدس بعهديه لا يعرف صورة الله الذي يحكم بالشريعة والناموس فقط، فهذه صورة القاضي من البشر الذي يطبِّق القانون بالعدل، دون أن يشعر بأيٍّ

من المتهمين ينتمي إليه، هذه ليست صورة الله الحقيقية. حقيقةً إن واضع الشريعة هو أول من يحترم الشريعة، ولكنه في نفس الوقت، هو الخالق الذي يرى كل حياة الإنسان، ويعرف مقدَّماً أن الشريعة لا يمكنها أن تُصحح الحياة وتقدمها، وإنما، كما قال الرسول: إن الشريعة قد أُضيفت بسبب التعديات.

وهكذا، فإن الذين يرون الله عادلاً فقط في العهد القديم، وأنه غيَّرَ منهجه وأدخل الرحمة في العهد الجديد، إنما يقدِّمون حكماً جائراً فيه خللٌ كثير. فالرحمة الإلهية تأخذ مكاناً بارزاً في العهد القديم، وهي رحمةُ الخالق التي تأخذ شكلها الروحي الواضح في كلمة متواترة على صفحات أغلب أسفار العهد القديم، وهي كلمة "الخلاص". فكيف يمكن أن يكون الله هو المخلص وهو عادلٌ فقط، وقد أجَّل الرحمة إلى مجيء العهد الأفضل؟ هذا سؤالٌ يندرُ أن نفكر فيه؛ لأننا تصوَّرنا الفصل بين العهدين على نحو غير سليم، لكن عندما يتمسك الله بالناموس، فإنه يتمسك به كله، فقد كان يمارس دوره كملك يملك مصائر كل الخليقة، وكان يفعل ذلك كمخلصٍ وديانٍ في نفس الوقت. وهنا، فإن الدينونة ليست هي الفصل في قضية في المحكمة، وإنما الدينونة تأخذ أحياناً شكل الخلاص عندما يتدخل الله لكي يعطي معونةً للمسحوقين، وهو يفعل ذلك بالرحمة الإلهية التي تنبع منه كخالق. لقد أعطى الله الشريعةَ للإنسان، ولأنه يعرف حقيقة الخليقة، كان يرتِّب إلى تجاوز الشريعة، بمعنى أن لا تصبح الشريعة هي قاعدة العلاقة الأبدية مع الله، فالله الذي يرى كل دهور الإنسان، إنما غرس الأبدية في الحياة الأرضية المائتة وكَشَفَ عنها، والأبدية لا تقوم على شريعة مهما كان نوعها وتفوقها، وإنما على عطية الحياة النابعة من الخالق، ولذلك كانَ دور الناموس دوراً مؤقتاً، وَصَفَه الرسول بأنه دور المؤدِّب أو المربي حتى يأتي الكمال، وهو شريعة الحياة الجديدة في المسيح.

الله الحاضر دائماً

العهد القديم بشكلٍ خاصٍّ، هو كتاب "الأنا الإلهية". فالله يقول: "أنا الرب"،

وهو يفعل ذلك؛ لأنه يؤكد حضوره الدائم بواسطة الكلام مع البشر. وقد نَقَلَتْ الكلمةُ الإلهية، وهي صورة بشرية مكوَّنة من حروف وكلمات، الحضور الإلهي إلى حياة البشر. إلَّا أن العهد القديم لم يبحث في كيفية كلام الله مع الإنسان، ولا في مشكلة استخدام الله للغة الإنسانية. فهذا البحثُ نابعٌ من مشكلات فلسفية وفكرية لا وجود لها في علاقة الله بالإنسان، وإنما اخترعها الإنسانُ غير المتدين الذي يرى في الخبرة الدينية مجموعة من المشاكل الإنسانية النابعة من احتياجات الإنسان والمعبِّرة عن آلام الإنسان وآماله، وهذا عندما صارت العقيدة الدينية في مدارس الفلسفة المعاصرة، مجرد أحلام وأشواق إنسانية بلا أساس إلهي، فالله غير كائن، والكائن وحده هو الإنسان، وخبرة الإلحاد هي التي اختلقت مشكلة اللغة الإنسانية. وعلاقة اللغة الإنسانية بالإيمان، لم تُبحث إلَّا في إطار غياب الله عن الحياة الإنسانية، أو عجزه عن أن يتكلم لغة الإنسان، ولذلك لا تظهر هذه المشكلة إلَّا في فترات الضعف الروحي، وقبل العصور الوسطى.

إنسانُ العهد القديم كان يعلم بأن الله قادرٌ على الحديث معه كخالق، و لم يرَ في ذلك مشكلةً، فالخالق الذي كوَّنَ الإنسان من التراب، و لم يتردد في أن يمنحه النطق والإدراك، كان يرتِّب ذلك لكي يسمعَ الإنسانَ، ولكي يتكلم هو ويسمعه الإنسانُ. وفي العهد القديم، فإن فعل "سَمِعَ، ويَسمَعُ" لا ينصب بشكلٍ خاصٍّ على الأُذن، وعلى حركات اللسان بالكلام، وإنما على الإدراك والوصول إلى المعنى واكتشاف القصد. والذين يسمعون كلمة الله هم الذين أدركوا ما يريده الله، ولعلنا تكون هنا أقرب إلى الصواب إذا قلنا إن "يسمع" = "يريد"، ولذلك، فالسمع والإرادة هما شيءٌ واحد.

لقد تمرَّأت حياة الإنسان المعاصر، وأصبح يسمع كثيراً ويدرك قليلاً، وهذا هو الذي جعل من فصل الإرادة عن السمع أو الادراك، مشكلةً معاصرة. وحديثُ الله الحاضر دائماً والذي يقول في كل مناسبة: "أنا الرب"، هو حديثٌ ذو دلالة؛ لأنه عندما يقول: "أنا الرب"، فهو يعود إلى:-

١– المواعيد التي سبق وأعطاها برحمته.

٢– الأحداث الخلاصية التي تدخَّل فيها الله، وصَنَعَها كمثالٍ يُخبِرُ بما سيتم مستقبلاً.

لقد قال الله في بداية الشريعة الموسوية: "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية" (خر ٢٠: ٢). هنا، الحضورُ الإلهي يعلِن للإنسان قدرة الله الفائقة، فقد ضَرَبَ آلهة مصر الوثنية وقضى عليها، وهذا يعني أنه حاضرٌ في التاريخ ويعلن عن ذاته في مواجهة الآلهة الكاذبة، هذا الإعلان يأخذ عدة أشكال أهمها:

١– الحَدَث

٢– الكلمة النبوية

٣– المواعيد

ومن خلال الحَدَث يعلن الله عن نفسه، فالأحداثُ أقوى كثيراً من الكلمات. فالله ليس أيسر الكلمات ... الله يصمت تماماً ويترك قدرته تعمل ما لا يمكن للكلمات أن تصنعه بدقة، وصمتُ الله هو دعوة للإنسان أن يتأمل كيف يعمل الله الكثير دون أن يعلن حتى عن ذاته، بشكلٍ مباشر.

هنا يمكن أن ندرك أن الحَدَثَ الذي يفوق الكلمات، كثيراً ما يصبح بعد ذلك حديثاً مثل الحديث الذي نراه في بداية الوصايا العشر. لقد أخرج الربُّ الشعبَ بقوةٍ وذراعٍ ممدودة: "لذلك قل لبني إسرائيل أنا الرب وأنا أخرجتكم من تحت أثقال المصريين وأنقذتكم من عبوديتهم وأخلِّصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة" (خر ٦: ٦). ولم يكتفِ الله بذلك، بل تحدث عنه كثيراً بعد ذلك كمثالٍ للخلاص الذي يستطيع أن يحققه، وعن الخلاص الآتي في المستقبل.

فالحَدَثُ والكلمة عند الله، هما أداةٌ واحدة. قد يميِّزُ الإنسانُ -عقلياً- بينهما، ولكن الأمر مختلفٌ لدى الله؛ لأنه حاضرٌ في الأحداث، إذ هو "ضابط الكل". وحضور الله لا يفصل بين الكلمة والحَدَث، فكلٌّ شيءٍ مكشوف وعريان عنده.

+ + +

بدايات التجسُّد

لقد سبق الله وأخبرنا عن مجيئه في الجسد بأكثر من شكلٍ في العهد القديم، ولعلنا نرى -بسهولة- في هذه الأشكال الواضحة، بدايةَ الإعلان عن التجسد:

١- ظهورات الله لإبراهيم وموسى وأشعياء وغيرهم.

٢- الوحي، وهو رغبة الله في الحديث مع الإنسان، وبلغته.

٣- حضور الله في الحدث التاريخي، وتحريك هذه الاحداث لإتمام غاية الله وقصده.

غير أننا يمكن أن نرى ذلك الموضوع بشكلٍ آخر أوضح، إذا تذكَّرنا دائماً أن الظهورات الإلهية، والوحي، وأحداث الخلاص في التاريخ، ليست سوى علامات للحقيقة الروحية الواضحة وهي:

١- إن الله خالقٌ، وعليه التزامٌ من نحو الخليقة.

٢- إن الخليقةَ بدون الله تموت، وهذا هو **مضمون النعمة الإلهية**، فهي وحدها التي تجعل الكائنات حيةً. ولا فرق بين النعمة والرحمة، وإن كان الإنسان يتمتع بالنعمة الإلهية بشكلٍ آخر أعمق بكثير، فهو الذي يتقبَّلُ كلمات الله، ويدخل في العهد الذي يقدِّمه الله؛ لأنه مخلوقٌ على صورة الله، وهي العطية الإلهية التي أتاحت للإنسان أن يتمتع بالعلاقة العقلية مع الله.

٣- إن العهدَ قائمٌ، ليس بحضور الله فقط، بل بالقَسَم. وعندما يُقسِم اللهُ

بذاته، فهو يربط نفسه بوضعٍ ثابتٍ لا يمكن أن يتغيَّر في مواجهة التغيير التاريخي.

التجسد والقَسَم الإلهي

لقد أقسم الربُّ بذاته عندما وَعَدَ إبراهيم بالبركة، وقد يبدو أن استخدام كلمة "قَسَم" هو أمرٌ لا يليق بالله، وأنه لا يجوز أن نتصور الله مثل البشر الذين يُقسمون، ولكن العلاقة الكيانية بين القَسَمِ والحضور الإلهي، ظاهرةٌ بوضوح، فالله الحاضر يؤكد أنه غير المتغيِّر، والذي لا تختفي رحمته بسبب خطايا الإنسان، ولذلك يُقسِم الربُّ دون أن يندم ودون أن يتراجع، وهو يعلم مسبقاً، ما سيصل إليه الإنسان من انحطاطٍ روحيٍّ. ومن هنا يظهر أن الله قد اتخذ من القَسَمِ مدخلاً لحضوره الفائق في التاريخ، ولتأكيد تحقيق المواعيد في مواجهة الإنسان الخائر العزم، الضيق الأفق، والكثير التردد بين الخير والشر. فالقَسَمُ هو بداية علاقة قائمة على العهد يعطيها القَسَمُ القدرةَ على البقاء ومنازعة الإنسان في تردده، وهنا يلجأ الله إلى هذا الأسلوب الإنساني؛ لكي يؤكد التزامه بما أعلنه من مواعيد. فالقَسَمُ في صورته البسيطة، مثل الظهورات والوحي، هو حضورُ الله الأساسي في حياة الإنسان.

لماذا التجسد؟

المرحلة الأولى: السؤال عن أسباب التجسد جاء أولاً عبر الهرطقات القديمة التي طرحت موقفين متناقضين تماماً:-

١- رفضُ التجسد الإنساني كله، وهو موقف هرطقات القرون الثلاثة الأولى التي آمنت بأُلوهية الابن، وأنكرت تماماً أنه تجسد؛ لأن التجسُّدَ عملٌ لا يليق بالله، فالجسد البشري شرير، ولا يمكن أن يختار إله الخير، الجسدَ الشريرَ كأداةٍ يعلِنُ فيها عن ذاته.

٢– رفضُ أُلوهية الابن، أي التمسُّك بإنسانيته، وإنكار لاهوته بشكلٍ مطلق، وهو موقف الأريوسية الذي أُدين بشكلٍ عالمي في مجمع نيقية ٣٢٥ م.

المرحلة الثانية: جاءت بعد القرن الرابع الميلادي، وهي في الحقيقة امتدادٌ فكريٌّ للمرحلة الأولى، وتمثل الأوطاخية والنسطورية طرفاها المتباعدان تماماً. وبينما أنكرت النسطورية اتحاد اللاهوت بالناسوت، أنكرت الاوطاخية الاتحاد، ونادت بذوبان الناسوت في اللاهوت. وبسبب هذه الهرطقات كان من المستحيل ألَّا يبحث آباءُ الكنيسة في أسباب التجسد، وقد تم البحث منذ زمن أكليمنضس السكندري، ولا زالت الدراسات متواصلة. لكن يلزمنا أن نقف عند النقاط الأساسية التي وضعها الآباء في القرون الخمسة الأولى، دون أن ندخل في التفاصيل:

التجسد ضروري كإعلان الله عن نفسه بسبب ما أصاب الإنسان:–

إذا كان لعقيدة التجسد جذورٌ في العهد القديم، فمن الواضح أن هذه الجذور لا يمكن أن تنمو وتثمر إلَّا في العهد الجديد، وثمرة هذه الجذور النامية هو التجسد كإعلانٍ أخيرٍ عن الله. هذا الاعلان لا يلغي ما قبله من إعلانات، وإنما يفسره ويشرحه، ولذلك وردت افتتاحية العبرانيين مؤكدةً أن الكمال جاء بمجيء الابن.

لقد كان التجسد ضرورياً كحدثٍ إلهيٍّ فائقٍ يفوق قدرة الكلمات:–

١– أكَّد التجسُّدُ أن الله يحب الإنسان فعلاً، وأنه لكثرة محبته، اتَّحد بالطبيعة الإنسانية. والاتحاد هنا، يعني أن الله قَبِلَ الإنسانَ إلى الأبد؛ لان اتحاد لاهوته بناسوتٍ مماثلٍ لنا، معناه أنه لم يعد في الإمكان الفصل بين الله والإنسان. هذه الحقيقة نعبِّر عنها بالاتحاد، وهو فعلاً غايةُ التجسد نفسه. فالاتحاد صورة ومستوى لعلاقة قوية لا تقبل ما تزرعه الخطية من خوفٍ، وعدم قبول نعمة الله؛ لأن اتضاعَ الله يصطدم بكبرياء الإنسان التي بدورها تجعل الإنسانَ غيرَ قادرٍ على قبول نعمة الله.

لقد سجَّل آباء القرنين الرابع والخامس الميلاديين الكثيرَ من الملاحظات عن الهرطقة الأريوسية والهرطقة النسطورية كمحاولتين للخطية والموت الذي فينا، لرفض نعمة الله. واتفق الآباءُ على أن الكبرياء الإنساني هو الذي يجعل الأريوسية في موقف الدفاع عن كرامة الله التي لا تسمح بالتجسد. كما أن خوف النسطورية من الاتحاد ليس ألَّا خوفاً من التوعية والعمق الذي يطرحه التجسد على ضمير الإنسان، خاصةً وأن التجسد يطلب التخلي التام عن الكبرياء والاحتفاظ بالذات.

٢– أعلن التجسُّدُ زوال كلِّ الوسائل الإنسانية للاقتراب من الله، لا سيما في الطقوس المعقَّدة والذبائح الحيوانية. ولقد علَّق العلامة أوريجينوس، ومن بعده أغسطينوس على أن ما جاء بالشريعة القديمة من الذبائح والاغتسالات وما إليه من وسائل، كان يستند على قاعدةٍ هامةٍ، وهي أن الإنسانَ بذاته غيرُ كفءٍ للمثول بين يدي الله، ولذلك يستعين بغيره من العناصر المخلوقة مثل الذبائح الحيوانية، وهي خلقت أصلاً لخدمة الإنسان، ووُضِعَت تحت سيادته قبل السقوط.

هذه المخلوقات صارت الآن على نحوٍ ما، وسيطاً بين الإنسان والله، وهو تعبيرٌ عن فقدان الإنسان لسيادته على الخليقة. ولكن، بشكلٍ آخر أعمق، تعبِّر الذبائح عن حاجة الإنسان للنعمة؛ لأن الإنسان الذي لا يملك أن يقترب من الله، دون الشروط التي وضعها الله، إنما هو مخلوقٌ لم يعد يملك علاقةً حسنةً بالخالق.

وهكذا عبَّر التجسُّدُ عن زوال كل وساطة يستطيع أن يقدِّمها الإنسان أو يقوم بها. فقد جاء الله وتجسَّد، وهذا جعل الإنسان في وضع التسبيح والشكر لمن تنازَل وجاء. هنا، يجب أن نرى بوضوح أن الوسائل القديمة التي كانت تعبِّر عن احتياج الإنسان للنعمة، قد فقدت قوتها؛ لان الناموس بموسى أُعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا، وتعبير إنجيل يوحنا: "ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا نعمة فوق نعمة"، إنما يعني بشكلٍ مباشرٍ، **أن النعمةَ هي حضور الابن الكلمة في الجسد.**

وقد انتبه المفسرون أخيراً إلى نقطةٍ هامةٍ في افتتاحية إنجيل يوحنا، كان أول

من أشار إليها هو العلامة أوريجينوس، وهي علاقة اللوغوس بالخليقة. فكل ما في الكون، جاء بإرادة اللوغوس، وكل الكائنات العاقلة تستنير به، فهو النور الذي بدونه لا توجد الحياة، لكن بشارة الإنجيل، ليست في تأكيد أن اللوغوس هو الذي خَلَقَ كل الكائنات، وإنما في التأكيد على أن الذي كان في البدء، جاء بنفسه وتجسَّد، لا لكي يُشرقَ، كخالقٍ يأتي بالحياة من ظلمة العدم، وإنما لكي يأتي بالحياة إلى نور الشركة مع الآب (مقدمة تفسير إنجيل يوحنا للعلامة أوريجينوس ك ١ فقرة ١٤). فالنعمةُ لا تعطى لمن يملك ويحيا، وإنما لمن لا يملك، وفي قبضة الموت. وهنا ندرك أهمية التجسد كحدثٍ ضخمٍ غَيَّرَ علاقة الإنسان بالله، لأنه يلجأ إلى حضن الآب حيث الوسيط، وهو وسيط عهدٍ أفضل، أي يسوع المسيح (المرجع السابق). ويمكننا أن ندرك معنى النعمة، إذا تذكرنا أن وجود الإنسان وحياته، إنما يعتمد على الله، وعلى الله وحده. فليس لدى الطبيعة الإنسانية أية قدرة على البقاء في الحياة والاستمرار في الوجود بقدرتها الذاتية، فالله وحده هو واجب الوجود، أمَّا الكائنات، فهي قابلة للزوال والانحلال، والذي يحفظها من الزوال، هو الله.

٣- باتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح، ظهرت لنا مقاصد الله الواضحة جداً:-

(أ) إن الإنسان لن يزول؛ لأن نائبه المسيح، سيظل إلى الابد إلهاً متجسداً.

(ب) إن الفواصل بين الله والإنسان قد رُفِعَت تماماً، وصارت خيرات اللاهوت تعبُرُ إلى الإنسان في سهولةٍ؛ لان رأس الإنسانية الجديد يحملها في ذاته ومنه إلى إخوته، فهو المركز والرأس الذي منه تنحدر كل النعم الإلهية إلى الأعضاء.

(ج) لقد ظلَّ اللاهوت كما هو عليه دون أن ينقُص، والذي زاد هو الناسوت. زاد بمعنى تحوَّلَ من العزلة والابتعاد عن الله إلى الاتحاد بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. والاتحادُ هنا -بكل كلماته السابقة- خاصٌّ بالمسيح، ولكن يخصنا نحن أيضاً في أي كلام عن النعمة؛ لأن تشبُّهنا بالمسيح لا يجعلنا على قدم المساواة مع

المسيح. فالفرق بين التجسُّد والخلق عظيمٌ جداً، فالتجسُّد هو مجيء الابن الاقنوم الثاني للاتحاد بالناسوت، أمَّا الخلق، فهو نشوءُ الإنسان من العدم، وهو نشوءٌ يعتمد أصلاً على أن الإنسان ليس كائناً بذاته، فهو صنعةُ الخالق وحده الذي لا يستمد وجوده من آخر، وبالتالي يظل الإنسان غير قادر على أن يصبح مثل الابن، فالإنسانُ ليس أقنوماً من أقانيم الثالوث، ولذلك نحن نتَّحد باللاهوت دون أن نصبح لاهوتاً، ولا يتحول جوهرنا المخلوق إلى جوهر الخالق، فهذا هو المقصود بالاختلاط والامتزاج، وإذا كنا سنظل على ما نحن عليه من طبيعة مخلوقة، إلَّا أننا شركاءُ الطبيعة الإلهية: "الذين بهما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة" (٢ بط ١ – ٤)، وهذا يؤكد بكل وضوح أننا سنظل كما نحن مخلوقين؛ لان شركة الطبيعة الإلهية لا تعني بالمرة أننا سنفقد كياننا المخلوق، فضد هذا الانحراف، يقف تعليم الآباء ضد الأوطاخية التي نادت بذوبان الناسوت في اللاهوت.

+ + +

التجسُّد وحقيقة النعمة الإلهية

إذا كنا نأخذ من ملئه "ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا نعمة فوق نعمة" (يو ١ – ١٦)، وهو الابن الوحيد الذي لا يجب أن نميِّز فيه بين اللاهوت والناسوت إلَّا تمييزاً فكرياً فقط لفهم التجسد، كما شرح القديس كيرلس الكبير، فمن الواضح أننا لا نستطيع أن نقسِّم المسيح الواحد إلى طبيعتين، كما تقول صلاة القسمة المعروفة عندنا بالسريانية، والتي تعكس بوضوحٍ تعبيرات الأبوين كيرلس وساويرس الأنطاكي، وهذا يجعلنا نقف عند معنى العطية الإلهية. فقد وُهبنا حياة المسيح، وهذه الهبة الفائقة ليست هبةً تنتمي إلى الطبيعة المخلوقة، فهذا هو تفسير الأريوسية، ولا هي عطية إنسانية، فهذا هو تفسير النسطورية التي جعلت جسد المسيح مجرد جسدٍ بشريٍّ لا يَهَب شيئاً لمن يأخذه في العشاء السِّري. فإن كنا نأخذ المسيح حقاً وفعلاً، فإننا بكل يقين، لا يمكننا أن نرى النعمةَ سوى حضورُ الله المباشر، وعمله الإلهي فينا الذي لا يمكن فصله عن أقنومه.

يقول القديس كيرلس في رسالته الثانية إلى نسطور مؤكِّداً حقيقة التجسد:

> "نحن لا نعلِّم بأن كلمة الله حلَّ في رجلٍ عاديٍ مولود من العذراء مريم، ولا نعتبر المسيحَ كأنه إلهٌ لَبَسَ الناسوت، وإنما حلَّ الكلمةُ في وسطنا، ولذلك قيل عن المسيح: "حلَّ فيه كمال اللاهوت جسدياً"، ولا نعلِّم بأنه صار جسداً مثلما يسكن في القديسين، بل حلَّ اللاهوت في الناسوت وجعله واحداً دون أن يتحول إلى جسد، وجعل سكناه في الناسوت على مثال قولنا إن نفسَ الإنسانِ تسكن جسده".

وهنا نرى أن أيَّ انحرافٍ في فهم التجسُّد معناه انحرافٌ في فهم النعمة، فالمسيح ليس مثل القديسين كما هو ظاهرٌ من النص، وإنما المسيح هو الإله الذي سكن في الناسوت مثل اتحاد النفس بالجسد في الإنسان. ويؤكد القديس كيرلس في نفس الرسالة:

"المسيحُ إذن هو نفسه الابن والرب، وليس مجرد إنسان استطاع أن يصل إلى الاتحاد بالله".

هذا فرقٌ أساسيٌّ بين الإنسان والمسيح.

ثم يقول القديس كيرلس بعد ذلك:

"ولسنا نفهم أن الاتحاد كان مجرد اتحادٍ في الاسم؛ لان ذلك لا يؤكد وحدة الطبيعة، مثلما قيل إننا نتحد بالرب "إننا معه روحٌ واحد"، ومع ذلك فاتحادنا به هو اتحادٌ نسبيٌّ".

وهنا طبعاً، وحسب اللغة المعاصرة، فإن مركز الشخصية في المتجسِّد هو اللوغوس، وهو ما يجعل القديس كيرلس يرفض أي صورة للكلام عن الاتحاد إلَّا الاتحاد الحقيقي. وهنا يصل القديس كيرلس إلى غاية الكلام عن الاتحاد:

"وعندما نعلِن موت الابن الوحيد ابن الله، أي يسوع المسيح حسب الجسد، معترفين بقيامته من الأموات، وصعوده إلى السموات، نقدِّم الذبيحة الغير الدموية في الكنائس، ونكمِّل سر الشكر، ونتغذى بتناولنا من جسده المقدس ودمه الكريم، جسد المسيح مخلصنا جميعاً ودمه، لا نتناوله كجسدٍ عاديٍّ، حاشا لله، ولا كجسدِ إنسانٍ تقدَّس واتحد مع الكلمة في الكرامة الإلهية، أو بسبب سكنى اللاهوت صار مكرماً، بل نتناوله بأنه المعطي الحياة حقاً، وجسد الكلمة نفسه؛ لأنه هو الحياة حسب طبيعته كإلهٍ. ولَّما اتحد بجسده، جعله مانحاً للحياة، كما قال هو نفسه: "الحق أقول

لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة"، فلا يجوز أن نفكر أنه جسدُ إنسانٍ مثلنا؛ لأنه كيف يمكن أن يكون جسدُ إنسانٍ مانحاً الحياة بحسب طبيعته الخاصة".

لذلك استخدم الآباء إحدى الكلمات اليونانية الهامة للتعبير عن طبيعة عمل النعمة الإلهية وهي كلمة The andric Acts وقد وَصَفَ الآباءُ نفسَ المسيح الإنسانية بأنها نفسٌ إلهيةٌ إنسانيةٌ (غريغوريوس النيصي عظة ٣-٨ على إنجيل يوحنا). وكل أعمال المسيح ليست إلهية، ولا إنسانية، بل إلهية إنسانية (ديوناسيوس الأريوباغي رسالة ٤). فالنعمة هي عطاءٌ إلهيٌّ، أي حياة المسيح غير المنقسمة إلى إلهٍ وإنسان، وهذا ما يجب أن نفهمه من كلمة The andric حيث أن الكلمة من مقطعين الأول The أي إلهي، andric أي إنساني. وقد ذاعت هذه الكلمة في الكنيسة الشرقية غير الخلقدونية، سيما في زمن فلكسينوس المنبجي وساويروس الأنطاكي، وذلك لوصف المسيح وصفاً أرثوذكسياً ينفي عنه التقسيم إلى اثنين، واحد ابن الله، وآخر ابن الإنسان.

ومن هنا نرى أن كل محاولات تحليل النعمة الإلهية التي جاء بها علينا الآباء في ابنه يسوع المسيح، تتلخص في إما أن نتمسك بالتسليم الرسولي، أو نقع في تطرف الأريوسية أو إنكار النسطورية، فالفرق بين الإيمان الرسولي وبين الأريوسية والنسطورية هو:

١- النعمة هي عمل الأقنوم الإلهي المتجسد المباشر.

٢- إنها عطيةٌ غير مخلوقة، ولا يجب أن تُنسَب إلى الطبائع المخلوقة؛ لأن هذا معناه أن الابن، الاقنوم الثاني، لم يتجسد.

٣- إنها شركة في الطبيعة الإلهية؛ لأن انعدام هذه الشركة معناه أن لا تحصل الطبيعة الإنسانية على خيرات اللاهوت، وهذا يؤدي في النهاية، ليس فقط إلى إنكار تجسد ابن الله، وإنما اعتبار أن الإنسان غير محتاج إلى نعمة الحياة الأبدية الآتية من الله.

التجسُّد ومضمون النعمة

يقول القديس يوحنا: "والكلمة صار جسداً وحلَّ فينا". وهذه العبارة وغيرها، وبشكلٍ خاص، عبارات القديس بولس الرسول المشهورة، حيث يرتبط اسم المسيح بحرف الجر "في"، أو "بـ"، أو "من" وغيرها، تدل بشكلٍ خاص على **أن النعمة الإلهية هي "حضورٌ مباشرٌ للثالوث الآب والابن والروح القدس"**. هذا الحضور يصل إلى شكله الواضح في بداية الحياة المسيحية حيث أننا نعتمد بالمسيح: "لأن كلكم الذين قد اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح" (غلا ٣: ٢٧). وهو ما يجعل الذين اعتمدوا بالمسيح "هم" "واحد في المسيح". "ليس يهودي ولا يوناني. ليس عبد ولا حر ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع" (غلا ٣: ٢٨). وهكذا نرى أن المعمودية هي دخولٌ إلى شركة في الله في يسوع المسيح وبالروح القدس. هذا الدخول لا يمكن أن يتحقق بدون التجسد، ذلك أن قوة المعمودية الأساسية هي في وساطة المسيح التي يعبِّر عنها الرسول بقوة في رو ٦: ٣-١١.

دُفِنّا معه بالمعمودية للموت (رو ٦: ٤)	متحدين معه بشبه موته (رو ٦: ٥)
نصير أيضاً أحياء بقيامته (رو ٦: ٥)	إنساننا العتيق قد صُلب معه (رو ٦: ٦)
متنا مع المسيح (رو ٦: ٨)	سنحيا أيضاً معه (رو ٦: ٨)
أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا (رو ٦: ١١)	

هذه الصورة الواضحة لا يمكن أن تعطي للنعمة سوى مضمون الاشتراك المباشر في الحياة الإلهية التي جاد علينا بها في ابنه يسوع المسيح، وهذه هي الحقيقة

الواضحة خلف كلمات الرسول يوحنا مع ملاحظة اختلاف الكلمات فقط:

الكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا ورأينا مجده	يو ١: ١٤
وحيدٌ من الآب مملوء نعمة وحقاً	يو ١: ١٤
من ملئه نحن جميعاً أخذنا	يو ١: ١٦
ونعمةً فوق نعمة	يو ١: ١٦

نحن نولد من الله مباشرةً، وهذه الولادة مستحيلة بدون التجسد، ذلك لأن التجسد هو العنصر الوحيد المشترك بيننا وبين الابن الوحيد، وهو ما جعله بكراً بين أخوة كثيرين (رو ٨: ٢٩). ولذلك يمكننا أن نشترك في نعمة المسيح، أي في حياته التي سكبها فينا بالروح القدس: "اذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف، بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب. الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله" (رو ٨: ١٥-١٦). هذه النعمة هي شركة في الله، وهي لا تعني إطلاقاً أننا نستطيع أن ننال شيئاً آخر غير المسيح نفسه، وهذا هو معنى الكلمات: "فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله ووارثون مع المسيح إن كنا نتألم معه لكي نتمجد أيضاً معه" (رو ٨: ١٧). هنا يجب أن نفهم أننا نتغير إلى صورة الإله المتجسد، وليس إلى صورة الإله بشكلٍ مطلق، ذلك أن العنصر المشترك هو الناسوت وليس اللاهوت، ولذلك، صورة حياتنا الممجدة هي صورة الناسوت. نحن شركاء في الجسد، كما يقول الرسول بولس: ،"وأن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح بالإنجيل" (أف ٣: ٦). لكن هذه الشركة ليست دون اللاهوت، وهنا يجب أن نتذكر الدرس الرهيب الذي تعلمناه من النسطورية، وهو أننا لا يمكن أن نفصل بين اللاهوت والناسوت في المسيح الواحد، ولذلك، فإن شركتنا ليست مع ناسوت المسيح دون اللاهوت؛ لان هذا يقول عنه الرب يسوع نفسه: "الروح هو الذي يحيي أما الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة".

من هذه الزاوية بالذات، يلزمنا أن نرى أن الدعوة المعاصرة لفصل اللاهوت عن الناسوت هي دعوة صريحة تنكر أولاً: تجسد ابن الله. وثانياً: هي دعوة تقول بشكل مباشر إن ما فعله المسيح، إنما كان لأجله هو لا لأجلنا نحن. لقد تجسد لا لكي يحل مشكلةً إلهيةً، بل لكي يخلص الإنسان ويرده إلى الشركة. وتجسد لكي يحفظ لنا في أُقنومه الإلهي المتجسد الاتحاد به وبالروح القدس، وبالآب.

ولكننا يجب أن نعود إلى ما ذكرناه سابقاً، وهو أننا نتغير إلى صورة المسيح الممجد، لكن هذه الصورة ليست صورته قبل التجسد، بل بعد التجسد؛ لان الذي يحملنا داخل الشركة مع اللاهوت هو الناسوت، وهنا يبدو بكل وضوح أن ما أعلنه المسيح لنا هو حياتنا التي صارت ممجدةً فيه. هذه الحياة هي حياته كما رأيناها، تجسده وموته وقيامته وصعوده وجلوسه عن يمين الآب: "متى أُظهر المسيح حياتنا فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه" (كو ٣: ٤). وهنا، الكلام عن الحياة الإنسانية التي مُجِّدت بسبب الآتي وباللاهوت، وصارت واحداً مع لاهوته بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. هذا بدوره يشرح لنا أننا: "ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآه نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح" (٢كو ٣: ١٨). هذه "الصورة عينها" ليست صورة اللاهوت بدون الناسوت، ولا الناسوت بدون اللاهوت، وإنما صورة المسيح الواحد.

التجسُّد والشركة في صفة البنوة، الصفة الأقنومية للرب:

عقيدة الكنيسة الجامعة هي أن الثالوث جوهرٌ واحد وثلاثة أقانيم، يتمايز كل أقنوم عن الآخر بصفة أقنومية هي الأبوة والبنوة والانبثاق. وأبوة الآب خاصةٌ بالآب وحده، وهي لذلك التي تجعل الأقنوم الأول آباً، وكذلك البنوة، وكذلك الانبثاق الذي يسمى أحياناً "عطية".

لقد حقق لنا التجسد الاشتراك في صفة الابن الأقنومية، أي البنوة، وهذه

الصفة الأقنومية ليست خاصة بالجسد أو الناسوت على الاطلاق، فالجسد أو الناسوت المأخوذ من العذراء هو شريكٌ لنا في طبيعتنا التي لا تنتمي على الاطلاق إلى اللاهوت، إنه جسدٌ بشريٌّ مثل أجسادنا، لكن عندما حلَّ ابنُ الله في الجسد، فقد جعل الناسوت أو الجسد جسده الخاص به، وبسبب الاتحاد، صار الجسد غير منفصلٍ عنه كابنٍ لله، وهذا هو معنى قول الرسول بولس: "ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني" (غلا ٤: ٤-٥).

كيف وصل إلينا التبني؟

ليس من الناسوت، وهذا هو الخطر الذي جعل النسطورية خطراً شديداً على الخلاص، إنما من اللاهوت. لكن، نحن أصلاً ليس بيننا وبين اللاهوت شركة. وبنوة الابن للآب هي شركة الآب والابن الروح القدس، وهي لا تنتمي على الاطلاق إلى الطبائع المخلوقة. لكن كيف أمكننا الاشتراك في هذه البنوة الفائقة ونحن أبناء الجسد المولودين حسب ناموس الطبيعة المحدود الذي لا يمكن أن يعطي الإنسان القدرة على أن ينال شيئاً خاصاً بالله وحده الذي يعلو فوق كل الخليقة؟ يقول القديس يوحنا: إن هذه هي هبة الله أن كل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله الذين ولدوا ليس من دم "طبيعة مخلوقة"، ولا من مشيئة جسد "قدرة إنسانية"، ولا من مشيئة رجل "ثمرة زواج أو قانون طبيعي". هنا يظهر لنا معنى اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح الواحد، ومعنى نضال الآباء ضد النسطورية، فالبنوة التي نأخذها هي سلطان الله الذي ننالة بالإيمان، وهو سلطان يعلو فوق إدراك البشر جميعاً، وفوق كل إمكانيات وقدرات وإرادة كل الطبائع المخلوقة.

لا يمكن أن نسمي بنوتنا لله سوى شركة في الصفة الأقنومية للابن، وهو ما يجعلنا أبناء لله. وكما أن الروح القدس ينبثق من الآب ويستقر في الابن، فهو كذلك يستقر فينا نحن أيضاً أبناء الله بالمسيح، ويجعلنا نقول مثل المسيح: "أبَّا أيها الآب".

إن المجال لا يتسع لشرح الشركة في الثالوث، لا سيما صفة التقديس، وهي الصفة الأقنومية للروح القدس التي أفاض القديس باسيليوس الكبير في شرحها[١]. والتقديس، وهو اسم العطية الفائقة التي تجعلنا هياكل لله بالروح القدس، ولكن يبقى سؤالٌ هام. هل اشتراكنا في بنوة الابن، تجعلنا أبناء للآب مثل الابن تماماً؟ وفي الاجابة نقول إن هذا السؤال سؤالٌ خاطئ؛ لأن:

١– هذا السؤال يتجاهل أن الابن هو الابن الوحيد الذي لا يوجد آخر معه، ويتجاهل أن التجسد هو تنازُل الابن الوحيد ليكون إنساناً، فمركز الشخصية هو اللوغوس أو الابن المتجسد الذي منه وبه وفيه صارت إلينا نعمة التبني بالروح القدس. ولذلك، شركتنا ليست قاصرة على شركة في الابن وحده، بل هي ثابتة وكاملة بالروح القدس، فهي ليست من الإرادة الإنسانية، ولا من الفهم أو المعرفة الإنسانية؛ لأننا نعرف لكي نشترك، ونشترك لكي نعرف، وتظل الشركة هي مصدر النعمة.

٢– الإنسان ليس متجسداً، وإنما هو مخلوقٌ، والجسدُ هو طبيعة ذاتية لا يمكن أن يرقى مطلقاً إلى الطبيعة غير المخلوقة، أي اللاهوت، فهذا مستحيل.

٣– الاشتراك في بنوة الابن هو نعمة آتية من الخارج كما قال القديس أثناسيوس بشكلٍ خاص. ومعنى هذا أن النعمة ليست طبيعة فينا، بل هي منحة لا تنتمي مطلقاً إلى الطبيعة المخلوقة، وهذا يعني بشكلٍ واضح أن النعمة مرتبطة دائماً بإرادة الواهب، لذلك لم يهبنا الله أن نتحول إلى جوهر اللاهوت. لقد أُعلنت لنا إرادة الآب في نعمة التبني مع بقائنا أخوةً بالنعمة للبكر الابن الوحيد، وبالتالي تعمل فينا النعمة على حسب القصد الالهي، أي نظل بشراً كما نحن، وهذا بشكلٍ خاص ظاهرٌ من قيامة المسيح ودخول ناسوته إلى المجد الأبدي وبقاؤه دون زوال أو امتصاص أو

---

(١) راجع على سبيل المثال لا الحصر الفصل ١٩ من كتاب الروح القدس للقديس باسيليوس – الطبعة الثانية، القاهرة، ص ١٣٠ – ١٣٣.

ذوبان، فنحن بسبب الاتحاد لا نذوب، بل ننال المجد.

٤ – إن السؤال عن نوعية المجد وجوهر النعمة، لا محل له إطلاقاً طالما أننا نؤمن بالاتحاد في المسيح الواحد، ذلك أن المجد الإلهي شَعَّ من المسيح بشكلٍ منظور على جبل التجلي، وهو مجدٌ كامنٌ فيه لم ينلْه المسيحُ من آخر، بل هو مجده الذاتي. وهنا يجب أن نفهم غاية الظهور المجيد على الجبل؛ ذلك لأننا لا نصير مثل المسيح يشعُّ فينا مجداً ذاتياً من داخلنا، وإنما المجد الإلهي الذي يشعُّ من الخارج وينعكس علينا؛ لأنه أحد ثمار اتحادنا بالمسيح. ولذلك، إذا فقدنا الاتحاد، فقدنا كل شيء. إن المسيح هو الذي يشعُّ فينا، وهذا يعني أننا تحولنا إلى مجده بالنعمة الآتية إلينا دون أن نصبح نحن مصدر المجد، بل صرنا ممجَّدين معه لأننا اشتركنا فيه. أما أن يصبح الإنسانُ مثل الله تماماً وفي كل شيء، فإن ذلك معناه توقُّف الشركة بين الإنسان والله. إن عطايا الله ذاتية لأنه واجب الوجود، أمَّا ما يناله الإنسان، فهو هبةً وعطيةً، ذلك أن وجود الإنسان يعتمد أساساً على النعمة الإلهية. إن اتحاد اللاهوت بالناسوت هو غاية مجيء ابن الله في الجسد وموته وقيامته وصعوده، وبدون الاتحاد يفقد التجسد معناه، ويصبح الصليب والقيامة بلا قيمة على وجه الإطلاق.

+ + +

التجسُّد،

هو تحوُّلٌ جِذريٌّ في علاقتنا بالله

أولاً: صار يسوع المسيح هو الوسيلة والغاية

هناك أعمال نصَّت عليها الشريعة باعتبارها وسيلة الاقتراب لله، كما هو مدون في سفر اللاويين والتثنية. وقد دخل –مع حركة التهود في العصر الرسولي نفسه– حفظ شريعة موسى (أع ١٥: ٥)، لا سيما مع الذين آمنوا من جماعة الفريسيين. وقام الرسول بطرس في أول مجمع كنسي، ليصف الشريعة بأنها "نيرٌ على عنق التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله" (أع ١٥: ٩)، وجاء القرار الصارم، والذي صدم دعوة التهود بأنه "قد رأى الروح القدس ونحن ألَّا نضع عليكم (الراجعين إلى الله من الأمم) ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة: أن تمتنعوا عما ذُبِحَ للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا ... " (أع ١٥: ٢٨).

وكان بولس نفسه قد وصف حياته السابقة كيهودي بأنها "عبادتنا الأضيق" (أع ٢٦: ٥)؛ لأنه مع تجسد الله الكلمة، وهو الوسيط لا الشريعة، صارت أعمال الشريعة لا تعطي للإنسان أيَّ مكانةٍ عند الله (لأنه بأعمال الشريعة لا يتبرر كل ذي جسد، أي كل إنسان)، ذلك لأنه إذا كانت بالشريعة معرفة الخطية، فكيف تحدد الشريعةُ الخطية، ثم تحرر الإنسان منها (رو ٣: ٢٠)؟ ولكن الآن ظهر برُّ الله بدون الشريعة، رغم أن الشريعة والأنبياء يشهد كلاهما لصدق أو لبر الله، ذلك الصدق الذي استُعلِن في يسوع ويعطى بالإيمان لا بأعمال الشريعة، هو هبة الله المجانية التي لا يملك الإنسان أن يعطي مقابلاً لها؛ لأن المسيح افتدانا من كل أحكام الشريعة، وصفح عن

كل الخطايا لكي يظهر صدق الآب[1] بشريعة الإيمان التي تقبل الخطاة بدون أية أعمال (رو ٣: ٢١ – ٣١).

وعندما يختم رسول المسيح التعليم بأن "الله واحد هو الذي سيبرر اليهودي بالإيمان والأمم بالإيمان" (رو ٣: ٣٠)، فهو يؤكد أن قبول الله لا يحدد شرطاً معيناً، وهو ما أوضحه الرسول بولس في عبارة صارمة جمع فيها كل ما تطلبه الشريعة من أعمال مثل التطهيرات والذبائح وحفظ باقي الفرائض، فقال: "لا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت، التي هي ظلٌّ لما سوف يعطى في المستقبل؛ لأن الجسد قد صار للمسيح" (كولوسي ٢: ١٦ ترجمة موسعة للإيضاح). هل هذا يجعل الشريعة باطلة؟ أبداً وحاشا، بل يؤكد وجودها؛ لأنها هي التي كشفت خطية الإنسان (رو ٣: ٢٠ مع رو ٣: ٣١).

والوسيلة والغاية كلمتان لم تردا في الأسفار، ولكن كانت الشريعة مؤدبنا إلى المسيح لكي نتبرر ويقبلنا الله بالإيمان. ولكن بعد استعلان بشارة الحياة، لم نعد بعدُ تحت المؤدِّب، أي الشريعة (غلا ٣: ٢٤). **فالمسيح مخلصنا هو وسيلة قبولنا، وهو ذاته الغاية؛ لأنه "حياتنا كلنا وقيامتنا كلنا وخلاصنا كلنا". المسيح هو الوسيلة إلى المسيح، وليس هناك من وسيلة أخرى. هو الوسيط الوحيد الحي "بحسب قوة حياة لا تزول" (عب ٧: ٢٢). هو ضامن العهد الأفضل (عب ٧: ٢٢)، العهد الجديد (عب ٨: ١٣).**

ثانياً: صار يسوع المسيح هو البداية والنهاية

فقد صار **يسوع هو البداية؛ لأننا فيه نبدأ، وفيه يتم الخلق الجديد** الذي نقل فيه أصل الإنسانية من آدم الأول إلى الرب نفسه (ق أثناسيوس الرسولي: ضد أريوس

---

(١) وهنا بالذات، مَن يمكنه أن يفتخر بأنه حفظ أحكام الشريعة وكل الأعمال المطلوبة؟

٣: ٣٣، والرسالة إلى أدلفوس ٤).

وهو النهاية؛ لأننا صرنا فيه بلا نهاية، فالنهاية لها حدٌّ هو الموت، **ولكن النهاية هي أننا متى جاء الرب في مجده، فإنه سوف يغيِّر جسد تواضعنا إلى ذات جسد مجده** (فيلبي ٣: ٢١)، لأننا عندما يظهر المسيح، سنكون مثله لأننا سنراه كما هو (١ يو ٣: ٢)؛ لأننا "جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف ... نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح" (٢ كور ٣: ١٨).

ثالثاً: صار لنا اتحاد أبدي بالرب يسوع

لقد صار لنا بالتجسد اتحاد أبدي على مثال اتحاد ألوهية الرب بالناسوت. هذا الاتحاد هو ينبوع السرائر، لا سيما أسرار الانضمام إلى جسد الرب: المعمودية والميرون والإفخارستيا. هذا الاتحاد الفائق هو فيضُ محبة البشر التي تنسكب فينا من الآب بالابن في الروح القدس. لأن المحبة الثالوثية ليست ثلاثة فروع، بل هي قوة وعمل واحد للثالوث القدوس، فمحبة الآب لابنه المتجسد هي ذات محبته لأعضاء جسد الابن "المؤمنين به"، الذين أعطاهم الآب سلطاناً أن يصيروا أبناء الله (يو ١: ١٢). وهي ذات محبة الابن للآب، وفي التجسد شملت تلك المحبة، جسده الذي أخذه من البتول، والذي ضم إليه كل الذين يؤمنون به؛ لأنه جعلهم أعضاء جسده، يحبهم بذات المحبة التي يحب بها جسده، وهي ذات المحبة التي بها مسح الروح القدس جسد الابن عندما صعد من مياه الأردن؛ لأنه، أي الروح القدس، سبق وكوَّن ذلك الجسد في "الحشا البتولي" (قسمة صوم الميلاد).

رابعاً: الإنسان الجديد أو آدم الأخير

أمام سر محبة البشر، توزَّعت اجتهادات العلماء من الذين خصصوا أنفسهم لدراسة العقيدة والأسفار والتاريخ، وأمام "لُجة محبة البشر" (القداس الغريغوري) التي

لا يملك النطق أن يحددها بلفظٍ، قال البعض إن الرب هو الواحد الذي يجمع الكل فيه كما كان آدم الأول، الإنسان الذي فيه الكل. وعاد بعضٌ من هؤلاء[١] إلى الواحد والكل في إسرائيل القديم حيث كان الواحد هو شخصٌ جمعي، بل عن أرسطو أخذوا فكرة الـ Universal واستقرت الفكرة لبعض الوقت حتى عند الأستاذ ماينـدروف[٢]. وعلى الرغم من أن هذه المقاربات تساعد على الفهم، إلَّا أن لدينا ثلاثة حقائق هامة لا علاقة لها بالفلسفة، بل تجدها متأصِّلةً ومتجذِّرةً في عقيدة الخلق من العدم:

١– عندما خلق اللهُ الإنسانَ، فقد خلق الجنس البشري في وحدة بيولوجية هي التناسل، وهي ليست نظاماً تملكه طبيعة، بل هو هبة وعطية محبة الخالق التي عبَّر عنها سفر التكوين: "اثمروا واكثروا واملأوا الأرض" (تك ١: ٢٨). ورغم مأساة السقوط، فقد استمر الإنسان في البقاء؛ لأن رحمة الرب كانت تدبر خلاص الجنس البشري، وهو أحد أسباب تسمية الرب بلقب "محب البشر".

٢– الله يخلق كل فردٍ ينتمي إلى الإنسانية، والجنس البشري حلقة واحدة متصلة، قد تبدو لنا كما لو كانت وليدة نظام System هو النظام البيولوجي، ولكن بركة الخالق تعمل رغم سقوط الإنسان؛ لأن الخالق نفسه حفظ تماسك وتضامن الجنس البشري، ليس في الوحدة البيولوجية، أي فيما يشترك فيه البشر من ولادة ونمو وغذاء وبيئة تجمع الكل، بل فيما هو مشترَك بينهم في الحياة العقلية، أي طلب الحرية والسعي للكمال والخير والتقدم ومحبة الجمال، وهي كلها القوى العاقلة التي نأخذها من الصورة الإلهية، وهي الهبة التي رغم ما أصابها، إلا أنها لم تباد، بل ظلت بقاياها في

([1]) Aubrrey R. Johnson, The Vitality of the Individual in the Thought of Ancient Israel.

- De Fraine, Adam and the Family of Man.

([٢]) اللاهوت البيزنطي، النص الإنجليزي، ص ١٥٢ – ١٦٤.

صراعٍ مع الفساد العقلي، أي الصراعات بين الخير والشر؛ لذلك لم يكن أكليمنضس السكندري مخطئاً حينما ذكر أن الشر ينتقل بالتعليم وبالتواجد في المجتمع.

في إطار هذا التضامن وتلك الوحدة البيولوجية التي دخل عليها الموت "بحسد إبليس" (صلاة الصلح الباسيلي)، جاء الكلمة وتجسد؛ لكي يفتح هذا التضامن وهذه الوحدة على ما هو أشمل وأعظم، ألا وهو وحدة الجسد الكنيسة، أي الجسد الواحد الذي رأسٌ واحد هو يسوع المسيح. هذا الذي منه تولد كل الأعضاء (كولو ٢: ١٩). فالخالق هو الذي يحفظ ويقوّي هذه الوحدة الإنسانية، رغم ما فيها من تباين عرقي وثقافي ولغوي ... إلخ لكنها تعود في النهاية إلى خالقٍ واحدٍ هو الكلمة الذي تجسَّد لكي يضع أساساً جديداً في كيانه هو ينقل إليه الإنسانية التي بعثرت حياتها، وخلقت انقساماتٍ مريعة لا يمكن إصلاحها بالأنظمة ولا بالشرائع، ولا بالتقدم العلمي، ولكن ببذرة المحبة الغير القابلة للانقسام، وبالحياة التي أخضعت الموت تحت قدميها، والتي تنسكب من اللوغوس في أحبائه ليكونوا مثالاً للوحدة والقدرة على التناغم وهزيمة الانقسامات.

٣– على أن الانضمام إلى الكيان الجديد، فليس بنظام، ولا بقدرات، بل هو عمل النعمة الذي تأسس في المسيح يسوع، والذي يمكن أن نضعه تحت اسمٍ معروفٍ، هو "الخلقة الجديدة" (٢ كور ٥: ١٨).

فالخلق من جديد هو العمل الإلهي الذي يقوم به اللوغوس بذاته لكي يجدد ما أفسده آدم، ولكي يحول نزوع الإنسان إلى الاتحاد بالآخر متضاماً معه في الخير أو الشر، إلى تضامن في الحياة تحت رأسٍ واحدٍ هو يسوع المسيح نفسه.

فكيف يجمع الكلمة المتجسد هذه الملايين من المؤمنين به؟ وجوابُ ذلك: بالقدرة الخالقة التي جعلته يخلق لكي يجدد، ويجدد لكي يؤلِّه، ويؤلِّه لكي يعطي وجوداً أبدياً خالداً غالباً للفساد والموت.

ممارساتٌ تكشف عن الجهل بالتجسد

قد يبدو مع حلول عيد تجسد ابن الله، أن العادات الشعبية قد استطاعت أن تنقل الوعي الإنساني من تجسد ابن الله إلى ميلاد طفلٍ اسمه يسوع في بيت لحم، رغم أن الليتورجية لا تسمح بذلك بالمرة؛ لأننا عندما نصلي القداس الإلهي في الأعياد السيدية، فإننا نجوز أعماق التدبير الإلهي. ويمكننا أن نرصد بعض تحولات الوعي الإنساني هذا فيما يأتي:

أولاً: لازلنا نحيط الجسد بالعادات اليهودية التي ذكرتها أسفار الشريعة، وقد سبق لنا أن أشرنا في مقال سابق[١] إلى أن طهارة الجسد، إنما هي تقديسٌ أبدي، وأن الفصل بين النظافة والتقديس بات ضرورياً؛ لأن منع النساء من التناول أو من لمس أجساد الشهداء والقديسين في الكنائس، هو جهلٌ تام بما حققه التجسد[٢].

ثانياً: لم يظهر بعد في حياتنا الكنسية، الاحترام المتبادَل النابع من الإيمان بأننا أعضاء جسد المسيح؛ لأن "الكنيسة جسد المسيح" موضوعٌ غائبٌ بسبب انعدام الوعي بما جاء به تجسد الله الكلمة، الذي جاء لكي يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد (يو ١١: ٥٢). فلازلنا متفرقين إلى شِيَعٍ وأحزاب وصل بها التناحر العلني على مواقع الانترنت مبلغه، بل دخلت إلى لغة الكتابة كلمات بذيئة تؤكد انحطاط الوعي وانعدام الرؤيا بأن الاختلاف حقٌّ إلهي لأن الآخر هو عضوٌ مختلفٌ تماماً عن أيِّ عضوٍ في الجسد الواحد (١ كور ١٢ كله).

---

(١) "المجمع المقدس يبحث عن وصية!!!" مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية.

(٢) قد يكون هناك بعضُ عذر، وكان كتاب "تجسد الكلمة" للقديس أثناسيوس الرسولي لا زال مجهولاً عند الذين يسمحون لهذه العادات أن تغرِّب الإيمان، ولكن ما عذرهم الآن وقد طبقت شهرة الكتاب الآفاق، وشاعت ترجماته، ونُشر كثيرٌ من الدراسات عنه؟

ثالثاً: لازلنا نؤكد السلطان الكهنوتي، وتركنا أهم ما قيل عن تجسد ابن الله الذي أخلى ذاته وأخذ صورة العبد ووضع ذاته للموت (فيلبي ٢: ٦). وتحول حتى اللُباس الخارجي إلى ملابسَ مزركشةٍ فقدت البساطة التي رأيناها في آخر عمالقة الجيل، البابا كيرلس السادس بابا الإسكندرية الذي عاش راهباً، و لم يكن يؤمن بالمظاهر الخارجية التي لا تستر عورة النفس.

ولكن، وعلى الرغم مما تسببه تحولات الوعي بتجسد الابن الوحيد، والتي رصدنا بعضها، من وجعٍ وألم، إلا أننا نجد أنفسنا مدفوعين من واقع محبة الثالوث لنا أن نقول في كل عام يهل علينا العيد، عيد تجسد كلمة الله، ليكن هذا العيد تجديداً للذهن وللحياة ليسوع رب الحياة، الذي "تجسد وتأنَّس وعلَّمنا طُرُقَ الخلاص" (القداس الباسيلي).

كل عام وجميع القراء بخير وعافية